إدوارد سعيد في تطوره الفكري من ش

فواز طرابلسي *

المقالة هي نتاج إعادة قراءة لكتاب «الاستشراق» بعد ثلاثين سنة على صدوره. تدفعني النظرة الجديدة المتفحصة لهذا السفر الاستثنائي إلى التساؤل النقدي عن الاستخدامات المجزوءة والمتغرضة للكتاب، بالاعتماد على عمليتين. الأولى، وصْل ما انقطع بين «الاستشراق» ومؤلفه ليعود الكتاب إلى احتلال موقعه في تطور سعيد الفكري والثقافي. والثانية، إعادة وضع إدوارد سعيد نفسه في مكانه وزمانه من انتمائه الآخر، انتمائه العربي. وأختم بإلقاء الضوء على جهد سعيد النقدي الفكري بما هو فعل ترجمة

بعد أكثر من ثلاثة عقود على صدوره، يتكشّف كتاب «الاستشراق» لإدوارد سعيد عن مفارقات كبرى. مع السنين، اكتسب الكتاب حياة قائمة بذاتها، منفصلة عن حياة مؤلفه وعن تطوره الفكري. بل أكثر من ذلك، جرى اختزال تراث إدوارد سعيد بكتاب واحد وتكاثرت القراءات لرائعته بطريقة معاكسة لاستدراكاته وتصحيحاته ومؤلّفاته اللاحقة. هكذا صودر فكر إدوارد سعيد لحساب ثلاثة تيارات. الأول، هو الاتجاه الغالب على الدراسات المسمّاة «بعد كولونيالية» في جامعات أوروبا والولايات المتحدة. الثاني، هو الأصولية ــ الإثنية والقومية والدينية العربية والإسلامية ـ التي شاءت أن تقرأ في نقد سعيد للاستشراق تبشيراً بضرورة العودة الى «أصالة» مهجورة أو مهجّنة ودفاعاً عن هوية «شرق» متمايز جوهرياً عن «الغرب». التيار الثالث يضمّ من يمكن تسميتهم حديثي نعمة الماليين والثقافيين من عرب ومسلمين، يعيشون في الغرب أو يبحثون عن اعتراف «الغرب» بهم، اختزلوا فكر إدوارد سعيد إلى نقيق احتجاجي على الكيفية التي تُشوّه بها «صورة» العرب والمسلمين في «الغرب».

اللحظات الثلاث في فكر سعيد

سار تطوّر إدوارد سعيد بطريقة جدلية، أو طباقية، كما يحلو له أن يسمّيها، في لحظات ثلاث لم يكن الانتقال من الواحدة إلى الأخرى مجرد سير في خط مستقيم، بل لزم تحوّلات وتصحيحات وعمليات إعلاء وتجاوز، غالباً ما استدعت الانتقال من إشكالية ومنهجيّة إلى أخرى.

اللحظة الأولى: نقد الاستشراق

«الاستشراق» (1978) مؤلف كبير، مكتوب بأسلوب حصيف ومعقّد، اكتسب شهرة عالمية، فصار يشكو مما تشكو منه الروائع العالمية بعدما اعترفت به وسائل الإعلام وتبنّته الحياة الأكاديمية وتداوله الجمهور الأوسع. صار الكتاب معروفاً بما يروى عنه، ويلخصه أكثر مما هو معروف بما فيه. الشائع عن «الاستشراق» أنّه تمرين نظريّ في ثنائية «المعرفة / القوة»، مطبقاً على العلاقة بين «شرق» و«غرب». في مسح أوّلي لموجوداته، يتبيّن أنّ الحيّز الأكبر منه مخصّص لتأريخ نقدي دقيق وبطيء وعاجٍّ بالأسماء والمراجع لمدرسة أكاديمية وفكرية وثقافية هي مدرسة المستشرقين. لكن مسحاً ثانياً أعمق وأدقّ، يستظهر الوميض الذي يشعّ من البناء المحكم والجهد التوثيقي والدأب البحثي والموهبة التحليلية والذوق الأدبي والثراء الثقافي، قبل أن يطلق سعيد شرارات الخيال والجمال والمحاججات الذكية ونفاذ النقد وعمق التطلّب الفكري.

يعاين كتاب «الاستشراق» عملية إنتاج «الشرق» في إطار إنتاج «الغرب» لنفسه على يد جماعة احتكرت مع الوقت ترجمة هذا «الشرق» وتأويله وتفسيره وتقديمه للغربيين والشرقيين، على حد سواء. ويتتبع الكتاب، من ثم، نشوء تلك المدرسة وتطوّرها، فيعرض أبحاث رجالاتها وإنجازاتهم، ويناقش أعمالهم، مقارناً في ما بينهم، من خلال التحقيب لمراحل تطور أفكارهم وأبحاثهم والمناهج.

ولا يكتفي سعيد بذلك، بل يقيم العلاقات الضرورية بين الاستشراق ورجالاته وبين مرجعيتين اثنتين في التاريخ والثقافة الغربيتين.

المرجعية الأولى، هي علاقات المدرسة الاستشراقية المتعددة الأوجه بالمؤسسة الاستعمارية ثم الإمبريالية الأورو ـ أميركية، بمصالحها واستراتيجياتها والسياسات. وهي علاقات لا تختزل بالتطابق والمباشرة والتبعية، بل ترى أنّ مدرسة الاستشراق لا يقتصر دورها على المكتشفات والأبحاث والدراسات في مضمار اللغات والجغرافية والآثار والثقافات الشعبية والديانات والحضارات «الشرقية»، قديمها والحديث. يصل دور المستشرق أحياناً إلى مستوى الفعل والتأثير المباشرين في مراكز القرار السياسي والاقتصادي في الدول الاستعمارية أو الإمبريالية، حيث يلعب دور المثقف الهامس في أذن «الأمير»، تقرّر نصائحه واستشاراته وتقديراته مصائر شعوب وبلدان بأكملها. المثال المعاصر عن هذا النمط من المستشرقين هو البريطاني برنارد لويس، مستشار شؤون الإسلام والعراق خلال عهدي جورج بوش الأب والابن، ناحِت مصطلح «صدام الحضارات» وصاحب النصيحة بغزو العراق رداً على هجمات الحادي عشر من أيلول 2001.

المرجعية الثانية هي الوشائج التي تربط تيارات مدرسة الاستشراق بتطور العلوم الطبيعية والاجتماعية والإنسانية الغربية. يكتشف سعيد هنا أنّ الوصل ليس مباشراً ولا هو آلي، وإن يكن يلاحظ انحياز المستشرقين الى مذاهب ومنهجيات دون أخرى، وخصوصاً استبعادهم المدارس التاريخانية والماركسية ومنهجية «التأريخ الجديد».

غير أنّ التوثيق الموسوعي الذي يمارسه إدوارد سعيد لن يقتصر على التأريخ الفكري والثقافي لأبرز تيارات المدرسة الاستشراقية. يحلل نقدياً أعمال أدباء ومفكرين وسياسيين أسهموا في إنتاج الغرب لـ«شرقه». ويخلص إلى أنّ المستشرقين يشتركون في عدد من الثوابت في نظرتهم إلى «الشرق» أهمّها:

1) النعرة الجوهرية، والمقصود بها تقديم الغرب والشرق بما هما جوهران متمايزان يختص كل منهما بخصائص أصلية ثابتة صارت طبيعة ثانية لكل منهما. لكن التمايز يفصح عن تراتب عمودي صارم وثابت، حيث العقلانية والتطور والرقي هي جوهر جماعة، والروحانية واللاعقلانية والتخلف جوهر جماعة أخرى.

2) التعميم، أي الافتراض أنّ معرفة الجزء تكفي لمعرفة الكل.

3) التنميط، أي إضفاء خاصة واحدة من خصائص الجماعة على الجماعة كلها.

4) الجمود، تصوير عالم الشرق وحياته على أنّهما ثابت لا يتحوّل، ما يعادل إعدام فعل الزمن والتاريخ فيه.

5) التفرّد، وهو عكس التعدّد، إذ «الشرق» دين واحد ومجتمع واحد و«عقل» واحد وجبلة نفسانية واحدة وثقافة واحدة.

6) الثقافوية، أي تفسير أفكار الشرقيين وسلوكهم ونمط حياتهم على أساس مبدأ تفسيري أوحد هو «ثقافتهم»، التي تختزل إلى دينهم بالدرجة الأولى. (سعيد، الاستشراق، طبعة عام 2003 الإنكليزية، ص 24-48).

يختم سعيد كتابه في خاتمتين. تحذّر الأولى من أن «يسهم الشرق الحديث في تشريق ذاته»، وتؤكد الثانية أنّ «الاستغراب ليس هو الجواب على الاستشراق» (سعيد، الاستشراق، 328).

أنْ يستشرق الشرقي يعني أن يستبطن الخطابات الاستشراقية، بخصائصها المثبتة أعلاه، عن الشرق والغرب على حدٍ سواء. أما الاستغراب، فيرى إليه سعيد على أنّه مجموعة سوانح وأفكار وانفعالات ترتضي بالقسمة الجوهرانية للعالم إلى شرق / غرب لكنّها تسعى إلى الإعلاء الرمزي والنفخ في معنويات الشريك الدوني والتابع في علاقات السيطرة الإمبريالية. بعبارة أخرى، الاستغراب هو الوجه الآخر للاستشراق. إنّه التيار العاجز عن إنتاج معارف مجدية عن الذات وعن الآخر، تنذر إعاقته الفكرية والثقافية بأوخم العواقب إذا ما تسنّى له أن يكوّن القيادة الفكرية لحركات التحرّر من التبعية الاستعمارية المباشرة أو من الاستعمار الجديد.

الخلاصة الأبرز الواجب استخلاصها من تحليل هذه اللحظة ـ التي نادراً ما يلتفت إليها ـ هي أنّ إدوارد سعيد في كتابه «الاستشراق» أسّس لنظريتين نقديّتين، ما لبثت إحداهما ـ نقد التصورات الغربية عن الشرق ـ أن طغت على الأخرى ـ وهي نقد التصورات الشرقية عن الغرب.

> يستشرق الشرقي حين يستبطن الخطابات الاستشراقية، بخصائصها عن الشرق والغرب على حد سواء

اللحظة الثانية: «الثقافة والإمبريالية»

يفتتح كتاب «الثقافة والإمبريالية» (1994) اللحظة الثانية في تطور فكر إدوارد سعيد. الكتاب يكمل «الاستشراق»، إذ يتناول الوجه الآخر لمشروع سعيد الفكري: «الغرب» في مرآة «الشرقيين». لا يكتفي «الثقافة والإمبريالية» بدراسة دور الثقافة في تبرير الإمبريالية وتزويدها بوسائل الشرعنة والطواعية على ضحاياها، بل إنّه يدرس أيضاً، دور الثقافة المقاومة في النضال التحرري من الاستعمار والإمبريالية. لكنّنا هنا قد خرجنا أصلاً من «الشرق» (منطقة غرب آسيا الذي جرى التركيز عليها في «الاستشراق») إلى حركات التحرر لشعوب القارات الثلاث.

في هذه اللحظة من تطوّره الفكري، فتح سعيد ورشة تصحيح لما في «الاستشراق» من شطح وأحادية جانب، آخذاً في الحسبان الملاحظات النقدية الموجهة إليه خصوصاً من جهة اليسار.

أولاً، اتخذ مسافة نقدية من ثنائي «المعرفة / القوة» المنسوب إلى ميشيل فوكو، منتقداً الفيلسوف الفرنسي لأنه «يهمل دور الطبقات والاقتصاد ودور الثورات والانتفاضات في المجتمعات التي يتحدّث عنها» (إدوارد سعيد، العالَم والنص والناقد، 1983، 244). وفي الاتجاه ذاته، صحح أحادية الجانب في مقاربته السياسة ـ الثقافية للاستعمار بأن أعاد الاعتبار إلى أبعاد الاستعمار الاقتصادية والاستغلالية، بما هو عملية «سيطرة على الأسواق والمواد الأولية واليد العاملة الرخيصة والأراضي المدرّة لأعلى معدلات الربح» (سعيد، الثقافة والإمبريالية، 13-14).

ثانياً، اعترف سعيد بصحة النقد الذي وجهه الناقد الأدبي الأميركي جيمس كليفورد إليه بأنّه «ينتكس إلى أنماط النعرة الجوهرانية ذاتها التي يهاجمها [في كتاب «الاستشراق»]» (سعيد، الانسنية والنقد الديموقراطي، الترجمة العربية، دار الآداب، بيروت، 2005 ، ص 24-25). والإشارة هي إلى تحويل سعيد

إدوارد سعيد (أرشيف)